المجمع 9 (2015/1436)، 301-318

بسم الله الرحمن الرحيم
تأملات في فواتح السور من خلال تفسير الكشاف للزمخشري وفي ضوء اللغات الساميّة

مليكة ناعيم*

تلخيص:

الحروف المقطعة في أوائل السور من القضايا المشكلة في القرآن الكريم، لذلك قيل في تفسيرها الشيء الكثير، واختلفت الآراء باختلاف أساليب المقاربة ومنطلقاتها. وتبتغي هذه الدراسة الإدلاء بدلوها في الموضوع من الناحية الصوتية، وفي ضوء الخصائص المشتركة للغات السامية. وقد انتهت الدراسة إلى نتائج أساس منها الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم من خلال التزام هذه الفواتح بالخصائص الصوتية المشتركة لعائلة اللغات السامية التي تحتفظ اللغة العربية بأهم مظاهرها.

مقدمة:

تفتتح كثير من سور القرآن الكريم، كما هو معروف، بحروف متقطعة فسرت على مر العصور الإسلامية تفسيرات عديدة، فمن قائل إنها بمثابة جرس تنبيه للسامعين يجلب انتباههم قبل البدء بقراءة السورة، أو أنها عبارة عن أسماء لسور معينة بدل القول باسم السورة، وهناك من قال إنها إشارات ترمز إلى أسماء الله وصفاته، وقيل هي أدوات تحد وإعجاز، أو رموز رقمية حساب مجاميعها[1] بعض تفسيرها أو جمل فسرها العبرانيون في لغتهم وبحسب لغتهم، والأجاريتيون حسب خطهم، ووقف عندها معظم من فسر القرآن الكريم وقدموا لها تآويل مختلفة، هذا وإن الغالبية العظمى من الناس تقول بأنها أسرار استأثر الله سبحانه بها.

ويبدو أن القرآن الكريم قد وجه اهتمام العرب منذ نزل ولفت نظرهم إلى ضرورة الإفادة من الزخم الصوتي في اللغة العربية، وهو يستهل بعض السور القرآنية بجملة محددة من الحروف الهجائية التي تنطق بأصواتها أسماء لا بأدواتها حروفا، للإفادة من صوتيتها لدى الاستعمال من دون حرفيتها.

وقبل أن أدلي بدلوي في هذا الموضوع، أقر بأن هذه مجرد مساهمة متواضعة في تقريب قراءة الزمخشري لهذه الفواتح من القارئ مع الاستعانة في كشف أسرارها بالخصائص المشتركة للغات

* محاضرة وباحثة في كلية اللغة العربية – جامعة القرويين – مراكش المغرب.

[1] . ينظر: معظم ما قيل في هذا المجال ودراسته والرد عليه في: أبو فراخ (محمد أحمد إبراهيم): حروف المعجم في القرآن الكريم ورد التأويلات الباطلة، ط.2، الكويت: شركة مكتبة البخاري، 1992م، الكتاب في 246 صفحة.

السامية، تسليما بالقول المرجح لكون العربية هي اللغة الأصل وباقي اللغات لهجات[1]، لعلها تتيح مقاربة الموضوع من وجهات لغوية متسعة، وعسى أن تكون الافتراضات التي سأقدمها مدخلا لأبحاث ودراسات توضح أكثر قوة هذه الحروف المعجزة.

كما أقر بأنني لا أريد الدخول في أبعادها الدينية ولست مؤهلة لذلك، ولكن تأملات في خصائصها كما فعل الزمخشري، إذ لم يتكلف تفسير معانيها كما فعل بعض المفسرين، وإنما وقف عند حدود خصائصها الصوتية؛ لهذا أتساءل: هل لفواتح السور إسهام في ريادة العرب للدراسات اللغوية إلى جانب الهنود؟ وما المغزى والحكمة من هذه الحروف؟ ولماذا الحروف المعتمدة؟ ولم صيغت على تلك الصيغ؟ ولماذا ذلك الترتيب وليس غيره؟ وهل تؤدي بالفعل وظائفها كفاتحة للنص؟ تلكم أسئلة وأخرى ستحاول هذه الدراسة مقاربتها بالتأمل في فواتح السور منطلقة من نص للزمخشري . سيرد في الدراسة بحسب المحاور. يمثل، في نظري، من أدق التفسيرات اللغوية المقدمة في مجاله معتمدا بنية حجاجية متميزة، عبر مداخل ثلاثة، وهي:

1. فواتح السور وسؤال الانتقاء.
2. فواتح السور وسر الترتيب.
3. فواتح السور وسر الترتيب.

وتختم الدراسة بقراءة الزمخشري في عيون النقاد:

1. فواتح السور وسؤال الانتقاء

في البدء أذكر بثلاث ملاحظات، وهي:

الأولى: أن الفواتح هي أول ما فسر الزمخشري من القرآن الكريم قبل أن يعقد العزم على تفسير القرآن كله، مما يفيد أنها تمثل في نظره بنية مؤهلة لاستخلاص أسرار الإعجاز القرآني، في عصر احتدم فيه الصراع بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى في مقاربتهم لهذا الموضوع.

الثانية: أن حروف المعجم في اللغة العربية ثمان وعشرون حرفا أو تسع وعشرون حرفا، وأنها كانت في الأصل قبل الإعجام لا تميز إلا بين خمسة عشر حرفا.

[1] . ينظر بهذا الصدد كل من محمد ولما عرفته اللهجات العربية من تطور صوتي بهجت القبيسي في كتابه: (ملامح في فقه اللهجات العربيات من الأكادية والكنعانية وحتى السبئية والعدنانية)، دار شمأل، دمشق، 1999م . شحلان (أحمد): مجمع البحرين من الفنيقية إلى العربية دراسة مقارن في المعجم واللغات العروبية (السامية)، ط.1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط: 2009م.

الثالثة: أن هذه الحروف تنطق كنطق الأصوات، ولا تلفظ كلفظ الحروف، بيانه أن هذه الحروف لها أسماء ومسميات، فالباء اسم ومسماه إب أو بَه، وقد التفت إلى هذا التقسيم الزمخشري فقال نقلا عن سيبويه: « قال الخليل يوما يسأل أصحابه: كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في لك والباء التي في ضرب، فقالوا: نقول: كاف باء، فقال لهم: إنما جئتم بالاسم (الصوت النطقي) ولم تلفظوا بالحرف، قالوا فماذا تقول أنت؟ قال: أقول: كه به»[1]، من تأمل هذا النص يتبين أن الحروف المكتوبة في المصاحف من فواتح السور هي المسميات (الحروف)، لكن قارئ القرآن إذا قرأها لا يلفظ بالمسميات وإنما بالأسماء، بمعنى الأصوات، فيقرأ: ألم هكذا: ألف لام ميم، ولا يقول أه وله ومه، ولعل هذا من أوائل المسائل التي تثبت للزمخشري مراعاة القرآن في اختياراته اللفظية البليغة للمتداول والسهل في النطق على القراء، بما في ذلك الأمي والمتعلم قبل أن تفقد بعضُ اللهجات بعض حروف الحلق وحروف الاستعلاء، ولعل هذا قصد الزمخشري في الكشاف بالقول: «إن النطق بالحروف أنفسِها كانت العرب فيه مستوية الأقدام الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأساس الحروف، فإنه كان مختصا بمن خط وقرأ وخالط أهل الكتاب وتعلم منهم، وكان مستغربا مستبعدا من الأمي التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة» 28/1، وهو قول قد يؤول عدة تآويل، خاصة قوله: أهل الكتاب..

بعد هذه المقدمة التي يعتبرها الزمخشري أساس اختيار الأصوات باعتبارها أساس المتن ككل، يحدد الزمخشري الحروف المعتمدة في فواتح السور وأسرار انتقائها قائلا: «واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانُه في الفواتح من هذه الأسماء (وليس المسميات) وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء، وهي: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون، في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم»[2]. هذه، إذن، إشارة تؤكد أن افتتاح بعض سور القرآن بهذه الحروف يبعد أن يكون قد حصل عن طريق المصادفة والاتفاق، بل كان عن قصد في البنية وعن هدف متعمد كما عبر بذلك الزمخشري وتلميح في الكلام إلى أسرار. إن الزمخشري لا ينكر أن تكون هذه الفواتح مضمنة لأسرار

[1] . الزمخشري (جار الله محمود بن عمر): تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي، د.ت، 20/1.

[2] . المصدر السابق، 29/1.

ربانية لا يعلمها إلا هو سبحانه، لكن ينبغي الاجتهاد في تبيان قوة ما كُشف فهو أمارة على قيمة ما لم يكشف.

قد أشير بعدد السور المفتتحة بالحروف إلى عدد حروف الهجاء في اللغة العربية، وهو ثمان وعشرون حرفا، باعتماد الاختيار الأول وهو أن الهمزة والألف حرف واحد، وأشير بعدد الحروف المعتمدة إلى نصفها مع اعتماد الاختيار الثاني وهو أن الألف حرف والهمزة حرف، وللحيلولة دون الرمي بالتناقض برر الزمخشري هذا الاختلاف في تصور عدد حروف العربية بالقول: «الهمزة والألف حرف واحد عند الفقهاء، وحرفان في عرف العامة»، والنصف المذكور يعتبر الأساس في النطق والأدق في الصفات. إن الكثرة والغلبة في الاستعمال هما عمدة الاختيار كما أن المعتمد هو أصل الأبجدية العربية قبل أن تميز بين الحروف باستثناء حرف الواو وقيل في عدم اعتماده الشيء الكثير[1]. ولم يقف تفسير الزمخشري عند حد هذه العموميات الواضحة وإنما سعى إلى دراسة دقيقة لهذه الأصوات من حيث الصفات. لقد التفت إلى أن فواتح السور لا تمثل نصف الحروف فحسب، وإنما تمثل كل الصفات بالنسبة نفسها، أي النصف، مع اعتماد الأقوى في الاستعمال والأيسر في النطق، يقول: «ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها: الصاد والكاف، والهاء، والسين، والحاء، ومن المجهورة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون، ومن الشديدة نصفها: الألف والكاف والطاء والقاف، ومن الرخوة نصفها: اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين، والسين، والحاء، والقاف، والياء، والنون، ومن المستعلية نصفها: القاف والصاد والطاء، ومن المنخفضة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء، والياء والعين والسين والحاء والنون، ومن حروف القلقلة نصفها: القاف والطاء»[2]. إن هذا كلام لا يمكن أن يصدر إلا عن دارس متمرس

[1] - هناك من قال إن أقدم نص جمع بين الحروف الأبجدية كان محتويا على اثنين وعشرين حرفا كتابيا، منها خمسة عشر حرفا مختلفا فقط في أول مدونة كتبت بالحروف العربية عام 512 م وقد كانت مكتوبة بثلاث لغات، وهي: اليونانية والسريانية والعربية، وعثر عليها بسوريا، وتلك المخطوطة قد احتوت على 22 حرفا عربيا، خمسة عشر منها فقط كان مختلفا، وتقدم للإشارة إلى ثمان وعشرين حرفا صوتيا. وهذا يدل على أن الفواتح اشتملت على كل الحروف، ولم يذكر حرف الواو لسببين، الأول أنه من الحروف الدالة على معنى مضمر إن كتب قبل الكلمات في بعض الأحيان. والسبب الثاني أنه استعيض عنه بذكره بعد الحروف في مواطن كثيرة "ص والقرآن"، "ن والقلم"...ينظر اليافي (عبد الكريم): من أسرار الأبجدية العربية، في: (مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، المجلد الرابع والعشرون، دمشق، ج1، 1979، ص ص 77. 85).

[2] . الزمخشري: تفسير الكشاف، 1/ 30.

ملم بالأصوات من جهة، ومن جهة أخرى يفيد هذا التصنيف المتميز لهذه الحروف أن الاختيار لم يكن اعتباطا، وإنما ينطوي على حقائق علمية إلى جانب المستأثر به.

وتتأكد الأهمية أكثر من النظر في حجة اختيار هذه الحروف من دون غيرها مما يشاركها الصفات نفسها، إذ بعد هذا التصنيف الدقيق، تعقب الزمخشري حكمة هذا التركيب وغاية هذا الذكر، وفلسفة هذه الأصوات، فقال: «ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبَها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته، فكأن الله عز اسمه عدد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحجة إياهم، ومما يدل على أنه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعا في تراكيب الكلم، أن الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكررتين»[1].

لقد رصد الزمخشري، كما يتضح من هذا النص، مواقع استعمال هذه الأصوات واطرادها على ألسنة العرب، مما يؤكد تكاثر بعض الحروف من دون بعض، وعرض لفائدة هذا التكرار في جملة منها، مشيرا بذلك إلى الحكمة المتوخاة وقيمتها الحجاجية في تبكيت المشركين وتفنيد ادعاءاتهم من كل جانب بالفعل "تعمد" ولفظ "حجة" في النص السابق، الدال على وجود معترض يلزم إقناعه. وأكبر حجة فيه هي المصدر الإلهي للقرآن الكريم إذ إن التصنيف على وفق الصفات والاستعمال لا يمكن أن يصدر عن أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

وما أشارنا إليه للتو من الكثيرة والمكثورة يتضح أكثر إذا عرضناها على الخصائص العامة للهجات العربية وما عرفته من تطور على مستوى الأصوات بفعل مخالطة غير الساميين.

واحتراما للوقت لن نتتبع الأصوات كلها، وإنما نقف عند نماذج أمارة على غيرها، وهي:

الصاد في علاقتها بالظاء والضاد.

العين في مقابل الغين.

الهمزة في مقابل حروف الحلق.

فبالنسبة للصاد والضاد، استوقفتنا هنا نكتة غريبة، فالله سبحانه وتعالى اعتمد ضمن الفواتح حرف الصاد مفردا وفي فاتحة سورة واحدة تحمل اسمه، في حين غيب الضاد ضمنها وهو الصوت المميز للعربية على سائر اللغات، بما فيها اللغات السامية القريبة الأصر من اللغة العربية، وافتخر

[1]. الزمخشري: تفسير الكشاف، 30/1.

به سيدنا المصطفى عليه السلام بالقول: "أنا خير من نطق بالضاد بيد أني من قريش"[1] أو كما قال عليه الصلاة والسلام، ووقد وصفه برجستراسر بأن " الضاد العتيقة حرف غريب جدا، غير موجود حسبما أعرف في لغة من اللغات، إلا العربية؛ ولذلك كانوا يكنون عن العرب بالناطقين بالضاد"[2]وعلى الرغم من مكانة هذا الحرف في الأبجدية العربية ومميزاته من حيث قوتُه في النطق والصفات والتميز، فإنه لم يعتمد وإنما استغني عنه بالصاد القوي في الاستعمال والاحتفاظ بالمكانة والصوت الأصل في اللغات السامية، إذ يلحظ أن هذه الأصوات الثلاثة المعتمدة ضمن فواتح السور موجودة في اللغات السامية القديمة وربما في السامية الأم المفترضة، لكنها أبدلت صادا لداع ما في معظمها، فكل ضاد وكل ظاء وكل صاد عربية يقابلها صاد في العبرية مثلا، وبذلك حل صوت واحد في العبرية محل ثلاثة أصوات في العربية، والشيءَ نفسَه يلحظ في الأكادية، إذ الصاد الأكادية تقابل ثلاثة أصوات عربية، هي الصاد والظاء والضاد، وأما في اللغة الآرامية فقد تحولت الضاء الموروثة عن اللغة السامية الأولى مرة إلى حرف قاف ثم إلى عين[3]، وهما حرفان معتمدان أيضا في فواتح السور كما رأينا. بل أن برجستراسر يجزم بأن صوت "الضاد" "لا يوجد الآن عند أحد من العرب"[4] هذا من حيث النطق واللغة المحكية وليس في اللغة المكتوبة. وبالرجوع إلى فواتح السور، فضلا عما ذكره الزمخشري من حجج الاختيار وما أومأ اليه بذكر تيسير النطق للعرب وغيرهم، نجد أن الفواتح تضمنت من الحروف الصاد والقاف والعين، وهي بدائل عن الضاد في بعض اللغات السامية وفي

[1] - قال ابن كثير في تفسيره (31/1): وأما حديث "أنا أفصح من نطق بالضاد"، فلا أصل له. وقال ابن حجر في اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة؛ (كما في كشف الخفاء 609): معناه صحيح، لكن لا أصل له كما قال ابن كثير وغيره من الحفاظ، وأورده أصحاب الغريب، ولا يُعرف له إسناد. وقال الحلبي في السيرة الحلبية (30/1): قال جمع: لا أصل له.ونقل حكم ابن كثير المصنفون في الأحاديث المشتهرة والموضوعات مقرين له؛ مثل: الزركشي في التذكرة (160)، والسخاوي في المقاصد (185)، والسيوطي في الدرر (37)، والسمهودي في الغماز (41)، وابن الديبع في التمييز (35)، وابن طولون في الشذرة (166)، والقاري في الأسرار المرفوعة (68)، ومرعي الكرمي في الفوائد الموضوعة (55)، والنجم الغزي في الإتقان (307).

[2]. برجستراسر (جوتهالف): التطور النحوي للغة العربية، محاضرات ألقاها في الجامعة المصرية عام 1929 المستشرق الالماني برجستراسر، أخرجه وصححه وعلق عليه رمضان عبد التواب،ط4، القاهرة: مكتبة الخانجي، 2003، ص.18.

[3]. حجازي (محمزد فهمي)، علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، د.ط، الكويت: وكالة المطبوعات، د.ت،ص. 141. 142.

[4]. برجستراسر: التطور النحوي للغة العربية، ص. 19.

الفواتح أيضا على غرارها لصعوبته في النطق واختفائه من الاستعمال في العروبيات ما عدا العربية. ولعل الحجة في ذلك أن هذه الضاد كانت عصيبة النطق على غير العرب حتى شاع أنه حرف مختص بالعربية وشاع في القرن الرابع تسمية اللغة العربية بلغة الضاد[1] وقد أثبتت بعض الدراسات أن حرف الضاد ثابت في لغات سامية منها الأوجريتية والحبشية.

وما سجلناه بالنسبة للصاد، ينطبق أيضا على الغين والخاء من أدنى الحلق في مقابل العين والحاء، أما الحاء والعين فهما صوتان حلقيان من أوسط الحلق نجدهما في العربية والعبرية والآرامية والحبشية، ولكنهما ضاعا في البابلية الأشورية لتحل محلهما الهمزة، لتأثير الشومرية التي لم تكن تعرف حروف الحلق، وأما الغين والخاء فقد اختفيا في كثير من اللغات السامية كالعبرية والحبشية والآرامية واستبدل بالعين والحاء تحت تأثير اللغات المجاورة لكل منطقة[2] ، وبالرجوع إلى القرآن الكريم نجد أنه في الفواتح اعتمد الحاء والعين، وهما حرفان أصليان في العربية، ولم يعتمد الغين والخاء اللذين ضاعا أو اختفيا من معظم اللغات السامية لصعوبة في النطق بعد مخالطة غير الساميين. مع كثرة الحاء ووجودها في كل ما وجدت فيه العين من الفواتح كهيعص وحم عسق. وهذا يناسب ما يتنبأ به الإنسان من كثرة تردد الحاءات وقلة تردد العينات في اللغة العربية هذا لا يستوي مع الواقع على أساس أن الحاء مهموسة والعين مجهورة، والمهموس بالنسبة للمجهور بسيط، ولكن يخالف المطرد في اللغة العربية بحسب توصيف وإحصائيات اللسانيين، إذ جاءت اللغة العربية على عكس ذلك لتحقيق غاية أهم وهي الوضوح السمعي، إذ بحصر عدد الحاءات والعينات في السور العشر الأولى من القرآن نجد الأولى تقل قليلا عن نصف عدد الثانية[3]، ولعل هذا يوضح الفرق في النطق بين نطق الحرف مجردا كما في فواتح السور حيث تكون الحاء أيسر في النطق لكونها مهموسة من العين المجهورة، وبين نطق الصوت داخل الكلمة حيث العين أوضح في السمع من الحاء، مما يؤكد وبجلاء حرص الذكر الحكيم في لغته وأصواته على اليسر والوضح، ومراعاة المقامات وطبيعة الأصوات واستحضار خصوصيات النص القرآني المرسل لكافة العالمين وألسنتهم تختلف من حيث القدرة على التلفظ بالأصوات التي تنفرد بها العربية أو التي فقدت في معظم اللغات بما فيها أفراد فصيلة اللغات السامية من شقيقات العربية.

[1]. عمر (أحمد مختار): دراسة الصوت اللغوي، القاهرة: عالم الكتب، 1991، ص. 349.

2 . خليل (حلمي): مقدمة لدراسة فقه اللغة، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1993، ص.139.

[3]. عمر (أحمد مختار): دراسة الصوت اللغوي، 398.

وصفة الكثرة والغلبة تتضح أكثر في إشارتنا إلى حرف الألف أو الهمزة باعتبارها أكثر الحروف تكرارا في أول الفواتح، وقد نبه الزمخشري على علة طغيانه، وهو حرف يميز اللغات السامية جمعاء إذ احتفظت به كلُها ومثل إلى جانب صوته الأصلي إبدالا لحرفي القاف والعين في الحبشية وإبدالا لحرف العين والهاء والحاء والغين في الأكدية بفرعيها كما مثل تحولا لحرف القاف في مصر وفلسطين وبعض المدن المغربية خاصة، إنه حرف له مرجعية دينية في اللغات العروبية فهو الحرف الأول من اسم الله في جميع هذه اللغات، وهو الحرف الذي لا يمكن أن يتقدم عليه حرف آخر، وإنما يتزعم الترتيب في كل الأبجديات وكل التراتيب المعرفة: ا ب ت، ا ب ج د، فله أهميته الدينية واللغوية، وبالرجوع إلى الفواتح نجده هو الحرف المطرد والذي تفتتح به الفواتح المتضمنة له، قد يعترض معترض بورود الهمزة في بعض اللغات غير السامية وبخاصة الأوروبية، فنجيب بأنها لا تشكل وحدة صوتية بل هي مجرد وسيلة نطقية لإظهار نطق الحركة، وأما في اللغات السامية فتعرف الهمزة باعتبارها وحدة صوتية وظيفية متميزة ومؤشرا دلاليا ففي العربية مثلا هناك فرق دلالي بين سال وسأل[1].

هذه مجرد تأملات في علاقة الحروف المعتمدة أو الكثيرة كما وصفها الزمخشري بالخصائص الصوتية المشتركة بين اللغات السامية، إذ اعتمد الثابت والمستعمل في اللغات السامية باطراد ليسره في النطق واتخذه دليلا على المكثور الذي اختفى أو أبدل بغيره في بعض اللغات السامية كما يتضح من الأمثلة السابقة. إن هذا الحرص على اليسر في النطق ليؤكد رسالة القرآن العامة والشاملة لكل البشرية بخلاف الرسالات الأخرى التي توجه إلى أمة بعينها فلا تعتبر إلا خصوصيات تلك الأمم.

2. فواتح السور وسر الترتيب

الملحوظة الثانية التي انتبه إليها الزمخشري، وإن بشكل ضمني هي ترتيب الأصوات في بنية كل فاتحة، ونلخص عمدتها في الانسجام وتعادل الأصوات وتوازنها وعدم التنافر ومراعاة ترتيب المخارج وفق تسلسلها في النطق مترددة بجهاز النطق من مبتداه إلى منتهاه، للتأكيد على المناخ الصوتي المتميز في وضع الحروف بموقعها المناسب بحسب تسلسلها في النطق. لقد حدد برجستراسر الترتيب المطرد

[1]. حجازي، علم اللغة العربية، ص. 140.

في اللغات السامية بالقول: «وفي ترتيب الأصوات الصامتة، تغلب الأصوات الحلقية، والطبقية وأصوات الصفير، والأصوات الأسنانية في تدرجاتها المختلفة» [1].

بالرجوع إلى الفواتح نلحظ غلبة حروف الحلق تليها حروف الإطباق، وقد جعلها برجستراسر في مقدمة الحروف السامية، مع اتخاذها فاء لما وردت فيه، ألم وألر مثلا، وهما أكثر الفواتح تكرارا، مع تدرج في المخارج من الأقصى فالوسط ثم الأدنى، وقد علل الباقلاني هذا الاطرادَ بالقول: « لأن الألف المبدوءة بها هي أقصاها مطلقا»[2]. فـ"الم"، مكونة من حرف من أقصى الحلق وهو الهمزة أو من الجوف إذا اعتبرنا الألف وهو أقصى المخارج، ثم اللام وهو من وسط اللسان ويتسم بصفة التكرار، ثم الشفتين وهو أدنى المخارج ويمثله هنا اللام، وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف أعني الحلق واللسان والشفتين وترتيب في التنزيل من البداية فالوسط ثم النهاية كما قال ابن القيم ت.751هـ[3]. هكذا، إذن، أحاطت هذه الفاتحة بالأصوات من جميع الزوايا الرئيسة، وهو تدرج مهم إذا استحضرنا ما يقتضيه الترتيل بل جميع الكلام المعتمد على النغمة من التدرج أو التناوب في الأصوات، فلو افترضنا أن "الم" مكونة من حروف الحلق ككل "إهع"، أي الألف والهمزة والعين بهذا الترتيب مثلا، لن تكون في جماليتها الصوتية وحسن نغمتها وكذا سهولة نطقها ك"الم" التي يجد فيها كل من القارئ والسامع سعة وحلاوة نظرا لانسجام المخارج والصفات وتدرج الأصوات.

إن هذا التنوع المقصود في المخارج والانسجام في الأصوات يعكسان من جهة ما تمتاز به اللغة العربية في مجموع أصواتها من سعة مدرجها الصوتي، سعة تقابل أصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها، وتعكس ما تمتاز به من جهة ثانية من توزعها في هذا المدرج توزعا عادلا يؤدي إلى التوازن والانسجام بين الأصوات.

وقد لحظ المهتمون بالأصوات أن هناك "تشابها كبيرا بين تصنيف الهنود لأصوات السنسكريتية حسب "المخارج" وبين تصنيف العرب لأصوات العربية على هذا الأساس، ومعلوم أن التصنيف الهندي أقدم كثيرا من التصنيف العربي. ومن مظاهر التشابه أن الهنود يرتبون الأصوات ابتداء من أقصاها في الحلق إلى الشفتين ثم يذكرون الأصوات الأنفية، وهذا الترتيب هو الذي نجده عند الخليل بن أحمد الفراهيدي، وعند سيبويه، وهو الذي سار عليه المؤلفون العرب من بعد"[4].

---

[1]. برجستراسر: التطور النحوي للغة العربية، ص.15.

[2]. الباقلاني: إعجاز القرآن،

[3]. ينظر: ابن القيم الجوزية (محمد بن أبي بكر): بدائع الفوائد، د.ط، بيروت، لبنان: دار الكتاب العري، د.ت، 173/3.

[4]. السعران (محمود): علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر د.ت، ص.90.

صحيح أن هذا الترتيب ليس هو المعتمد في الفواتح كلها، لكن المهم هو الحرص على تنوع الصفات[1]، وعلى الترتيب المذكور أعلاه الحلقية فالطبقية، ولا تكاد تخلو أي فاتحة من أحدهما، كما أن التدرج من الأقصى إلى الأدنى هو المطرد، ألم، طس، طسم، حم، يس، ألر، وهناك العكس لكنه غير مطرد نحو: طه، أي من اللسان إلى الحلق، وما خالف هذا الترتيب شاركه في خاصية الانسجام وهو متعلق بالرباعي والخماسي، فمثلا كهيعص هناك تناوب منظم بين المخارج من كاف من اللسان، وهاء من الحلق ثم الياء من اللسان ثم العين من الحلق وأخيرا صاد من اللثة، وأيضا ألمر هناك تدرج من مبتداه إلى منتهاه مرورا بالوسط ثم رجوع إلى الخلف الوسط، أي من الحلق والوسط فالشفتين ثم الرجوع إلى الوسط الذي يمثله اللسان بمخارجه الكثيرة[2].

وستتضح لنا صفة الانسجام والتدرج في المخارج أكثر من فاتحة سورة الشورى (حم عسق)، فهي كفاتحة سورة مريم مكونة من خمسة حروف: كهيعص، حم عسق، واللافت للنظر أن فاتحة سورة الشورى اعتبرت آيتين، ولم تدمج عسق في حم، كما هو المعتاد في باقي الفواتح كما في "كهيعص"، ربما لتنافر حرف الحاء مع العين لكونهما من المخرج نفسه وحرف الميم الشفوي حاجز غير حصين بينهما، بخلاف كهيعص، فعلى الرغم من أن الهاء والعين حلقيتان إلا أنهما مختلفتان في المخارج، الهاء من أقصاه والعين من وسطه والفاصل بينهما هو الياء مما حال دون التنافر.

[1] _ وقد علله ابن الأنباري بالقول: حروف المعجم التسع والعشرون تجري مجرى الرسالة والخطبة، فيستقبحون اتفاق الألفاظ واستواء الأوزان، كما يستقلحون ذلك في خطبهم ورسائلهم فيغيرون بعض الكلم ليختلف الوزن وتتغير المباني، فيكون ذلك أعذب على الألسن وأحلى في الأسماع. ينظر: ابن الجوزي (جمال الدين عبد الرحمن بن علي): زاد المسير في علم التفسير، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط.1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1422هـ.

[2] . قسم اللسان إلى عشرة أقسام؛ فأول قسم من أقسام اللسان فما فوقه من الحنك: يخرج منه القاف .وثاني قسم منه :يخرج منه الكاف، ويقع أسفل الحنك قليلًا .وثالث قسم منه :وهو وسطه، بينه وبين وسط الحنك، يخرج منه الجيم والشين والياء. ورابع قسم منه :الضاد تخرج من أول حافة اللسان، وما يليها من الأضراس .وخامس قسم منه :اللام، صوتها يخرج من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرفه .وسادس قسم فيه :النون، تخرج من فوق مخرج اللام إلى فويق الثنايا .وسابع قسم فيه :الراء، وهي أدخل من مخرج النون إلى ظهر اللسان .وثامن قسم من اللسان: يخرج منه الطاء والدال والتاء، تخرج من طرف اللسان وأصول الثنايا .وتاسع قسم :الزاي والسين والصاد؛ حيث تخرج من بين طرف اللسان وفويق الثنايا السفلى. وآخر أقسام اللسان -وهو القسم العاشر- يخرج منه الظاء والثاء والذال، مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا . ينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ج1، تحقيق د. مهدي المخزومي، و د. إبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، بغداد 1400هـ 1980م، 1/57-58 وسيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان): الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 4/433-434.

3. فواتح السور وسحر البناء

التفت الزمخشري أيضا إلى مسألة مهمة في الفواتح تتجلى في الحكمة من تنوع عدد حروفها، والذي يتراوح بين صوت واحد وخمسة أصوات، يقول عن طريق أسلوب الادعاء والاعتراض الحجاجي: «فإن قلت: فهلا جاءت على وتيرة واحدة؟ ولماذا اختلفت أعداد حروفها فوردت ص وق ون على حرف وطه وطس ويس وحم على حرفين، وألم وألر وطسم على ثلاثة أحرف، وألمص وألمر على أربعة وكهيعص وحم عسق على خمسة أحرف، قلت: هذا على عادة افتنانهم في أساليب الكلام، وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب متنوعة. وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك»[1].

إنها حكمة بليغة، إذ إلى جانب اختيار الأصوات الكثيرة ومراعاة التدرج في المخارج من أقصاها مطلقا وأكثرها في الكلام، ومراعاة الانسجام في الصفات، رُعي في التنزيل الحكيم أبنية الكلم في اللغات السامية مع مراعاة خاصيتي الكثرة والقلة، فما كثر في الكلام، وهو الثلاثي وهو الأصل بالاتفاق، كثر في الفواتح بعدد أربع عشرة فاتحة، أي نصف العدد الإجمالي، ثم الثنائي بتسع، أي حوالي الثلث، ثم الأحادي بثلاثة باعتبار الحروف أصل الكلام، ثم الرباعي بمثالين، والخماسي بمثال واحد، وذلك لأني أعتبر حم عسق فاتحة مزدوجة إذ هما آيتان وليستا كلمة واحدة على خلاف ما قال به المفسرون والله أعلم، فلماذا هذا التباين؟

الجواب عند اللغويين والباحثين في المشترك السامي وأبنية كلام العرب على سواء، يقول ابن جني: «إن الأصول ثلاثة: ثلاثي ورباعي وخماسي، فأكثرها استعمالا، وأعدلها تركيبا الثلاثي، وذلك لأنه حرف يبتدأ به، وحرف يُحشى به، وحرف يوقف عليه، وليس اعتدال الثلاثي لقلة حروفه حسب؛ لو كان كذلك لكان الثنائي أكثر منه؛ لأنه أقل حروفا...فتمكن الثلاثي إنما هو لقلة حروفه لعمري، ولشيء آخر، وهو حجز الحشو الذي هو عينه بين فائه، ولامه، وذلك لتباينهما ولتعادي حاليهما، ألا ترى أن المبتدأ لا يكون إلا متحركا، وأن الموقوف عليه لا يكون إلا ساكنا؛ فلما تنافر حالاهما وسَّطوا العين حاجزا بينهما، لئلا يفجئوا واو الحس بضد ما كان آخذا فيه»[2]. هكذا يؤكد النص ما سبق أن أشرنا إليه من خاصية الانسجام من جهة ويبين من جهة ثانية مناسبة بنية الفواتح للمطرد في كلام العرب وهو الثلاثي ولما شذ عنه وهو الثنائي ولأصل الكلام الذي هو الحرف

[1]. الزمخشري: الكشاف، 1/ 30. 31.

[2]. ابن جني: الخصائص، ط.3، تحقيق محمد علي النجار، د.ت، دار الهدى للطباعة والنشر، 1/55 . 56.

ثم للنادر وهو الرباعي والخماسي، فعلى الرغم من أن علماء التصريف يعتبرونهما من الأصول العربية فإن دارسي اللغات السامية يرون أنهما وزنان يعودان إلى أصول ثلاثية. لذلك اكتفي من الرباعي بمثالين ومن الخماسي بمثال واحد وأما حم عسق فهي فاتحتان ثلاثية وثنائية وليست مركبة بدليل أنها تمثل آيتين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أبنية الكلام في اللغات السامية في حاجة إلى الدراسة ولا سيما في علاقتها بالمعنى.

ويتضح الأمر أكثر إذا رجعنا إلى المشترك السامي، فمما أكد عليه دارسو اللغات السامية ضمن الخصائص المشتركة للغات السامية، هو أن الأصل يتكون من ثلاثة أصول ساكنة (غير لينة) مختلفة (قتل، ضرب، رجع..)، ولم يغفلوا الإشارة إلى ما للقاعدة من حالات استثنائية يجسدها الثنائي والثلاثي اللين الوسط، لذلك أشار بروكلمان إلى أن الكثرة العظيمة من الكلمات ترجع إلى ثلاثة أصول من الأصوات الصامتة، وقد يدخل عليها إضافات في الأول أو في الآخر[1]، التعبير بالكثرة يبين وجود حالات أخرى لكنها أقل استعمالا، كما فيه تلميح إلى أن الرباعي والخماسي هما من الثلاثي المضاف إليه بعض السوابق أو اللواحق، وهو ما صرح به علي عبد الواحد وافي قائلا: «أما الكلمات التي تبدو رباعية الأصول في العربية والعبرية فهي متفرعة في الحقيقة عن أصول ثلاثية (دحرج مثلا متفرعة عن "درج" أو عن "دحر" الدال على الدفع والأبعاد، على الرغم من أن علماء الصرف يعتبرون جميع أصواتها أصيلة»[2]. هكذا يبدو أن التعبير القرآني في هذه الفواتح التي تبدو مضمنة لكثير من خصائص التعبير القرآني وشاملة لبعض وجوه إعجازه منسجمة من حيث بنيتها مع بنية الكلمة العربية التي تتراوح بين صوت واحد وخمسة أصوات/ مع اطراد الثلاثي وهو المطرد أيضا في هذه الفواتح فحق اعتبارها مظهرا من مظاهر الإعجاز القرآني في جانبه الصوتي. فكيف قرئت محاولة الزمخشري؟

[1]. ينظر: بروكلمان: فقه اللغات السامية، د/ط، الرياض: جامعة الرياض، 1977، ص 93. 94

[2]. وافي علي عبد الواحد. فقه اللغة، ص.14.

4. قراءة الزمخشري في عيون النقاد:

طبيعي أن الدراسة المتميزة هي التي تلقى الاهتمام وتحظى بالنقد والمراجعة والشرح والتأويل... ولم تخرج عن هذا النمط قراءة الزمخشري لفواتح السور. من الناحية الصوتية وريادته للكثير من قضاياها الإعجازية، معتمدا على العفوية في حس صوتي غذته التجربة الذوقية الفطرية في غياب لأدوات دراسة الصوت من آليات التشريح وقياس الأصوات، أقول على الرغم من هذه الأهمية، فإنها لم تسلم من النقد والقراءة والتأويل.

لقد قرئ تفسير الزمخشري للقرآن الكريم قراءات متعددة، تراوحت بين الاستحسان والاستهجان، والثناء واللوم. لم تسلم معها من أعين الناقدين ولدغ اللادغين، وهو أمر طبيعي، نظرا لأهميتها وخصوصياتها[1]، "ولقد أحصى صاحب كشف الظنون ما يزيد عن الأربعين كتابا تناولت الكشاف نقدا أو تعقيبا، أو شرحا وتوضحيا، ومعظم تلك الدراسات ألفت أواخر القرن الهجري السابع وإبان القرن الثامن[2] وذكر بروكلمان أنَّ للكشاف (22) شرحًا وتعليقًا، و(9) مختصرات، و(3) ردود[3]. ولعل في مقدمة من سلط سهمه النقدي عليه وتحامل عليه تحاملا ظاهرا، معترفا بأهميته ضمنيا، ومستفيدا من تصوره، هو الإمام الشوكاني ت. 1250 هـ، الذي يتسم نقده لقراءة الزمخشري لفواتح السور بالتناقض، لقد حصر مظاهر الإعجاز القرآني في النظم، وكأن علم الأصوات لا قيمة علمية له، وسأكتفي بقراءة نص من النصوص التي انتقد فيها الزمخشري قائلا: «ومن أدق ما أبرزه المتكلمون في معاني هذه الحروف ما ذكره الزمخشري في الكشاف...وأقول هذا التدقيق لا يأتي بفائدة يعتد بها، وبيانه أنه إذا كان المراد منه إلزام الحجة والتبكيت كما قال، فهذا متيسر بأن يقال لهم: هذا القرآن هو من الحروف التي تتكلمون بها ليس هو من حروف مغايرة لها، فيكون هذا تبكيتا، وإلزاما يفهمه كل سامع منهم من دون إلغاز وتعمية، وتفريق لهذه الحروف في

[1]. يكفي لتوضيح أهمية تفسير الزمخشري قول الذهبي: ((وأما قيمة هذا التفسير، فهو – بصرف النظر عما فيه من الاعتزال – تفسير لم يسبق مؤلّفه إليه؛ لما أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن؛ ولما أظهر فيه من جمال النَّظم القرآني وبلاغته، وليس كالزَّمخشريّ من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر بلاغته؛ لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم؛ لاسيما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب، والمعرفة بأشعارهم، وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة، والبيان، والإعراب، والأدب، ولقد أضفى هذا النبوغ العلمي والأدبي على تفسير (الكشَّاف) ثوبًا جميلاً، لفت إليه أنظار العلماء، وعلَّق به قلوب المفسرين))، التفسير والمفسرون 433/1

[2]. خليفة (حاجي): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت: مكتبة المثنى، د.ت، 1477/2.

[3] ينظر: تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان 290/1

فواتح تسع وعشرين سورة، فإن هذا مع ما فيه من التطويل الذي لا يستوفيه سامعه إلا بسماع جميع هذه الفواتح، هو أيضا مما لا يفهمه أحد من السامعين، ولا يتعقل شيئا منه فضلا عن أن يكون تبكيتا له وإلزاما للحجة أيا كان، فإن ذلك هو أمر وراء الفهم مترتب عليه، ولم يفهم السامع هذا، ولا ذكر أهل العلم عن فرد من أفراد الجاهلية الذين وقع التحدي لهم بالقرآن، أنه بلغ فهمه إلى بعض هذا فضلا عن كله"[1].

أول ما يلحظ على الموقف هو التناقض الواضح في مقدماته؛ فبعد أن قال بأهمية موقف الزمخشري بلفظ صريح يعتبر حجة عليه لا له حين وصفه بأنه: أدق ما أبرزه المتكلمون، وهو حجة لفظية تثبت الأهمية والتميز بل التفرد بالموقف، سرعان ما يتراجع عن الموقف بتجريده من أهميته وقيمته العلمية والدلالية بالقول وأقول هذا التدقيق لا يأتي بفائدة يعتد بها، إن هذه المقابلة الملحوظة في العبارتين تبين أن التحامل المقصود على الزمخشري لأسباب لم يفصح عنها صاحب القول لكن من الواضح أنها ذات علاقة بالصراع المذهبي والاحتكام إلى المواقف من الشخص في تقييم آرائه بدل نقده نقدا علميا مبنيا على الحجة والحجة المضادة أو الموقف والموقف الناقد, إننا هنا لا نبرئ الزمخشري من الخطإ ولا ننتقص من قيمة الشوكاني العلمية لكن النقد ينبغي أن يبنى على أسس علمية واضحة ليكون نقدا علميا. هب أن هذا لا يفهمه عرب الجاهلية فهل هذا ينفي القيمة الدلالية والصوتية عن هذه الحروف، وهل تفقد الآيات المتشابهات قيمتها لكون الله استأثر بعلم معناها؟

"وفضلا عن الموقف من الزمخشري هناك أيضا تعميم للموقف من عرب الجاهلية وانتقاص من معارفهم بالجملة، وهم أرباب البلاغة وفحول الشعراء وأرباب الفصاحة والبيان، وهل الصحابة الذين أدلوا بدلوهم في محاولة منهم لتفسير هذه الحروف كانوا في غير الجاهلية، وهل النبي الذي نزل عليه القرآن لم يولد في الجاهلية، أم أنه كان جاهلا لمعاني هذه الحروف وهو المفسر للقرآن قولا وفعلا.

ثم يقول الشوكاني: "ثم كون هذه الحروف مشتملة على النصف من جميع الحروف التي تركبت لغة العرب منها، وذلك النصف مشتمل على أنصاف تلك الأنواع من الحروف المتصفة بتلك الأوصاف هو أمر لا يتعلق به فائدة لجاهلي ولا إسلامي، ولا مقر ولا منكر، ولا مسلم ولا معارض، ولا

[1]. الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية من علم التفسير، ط2، د.م: د.ن، 1964م، 30/1.

يصح أن يكون مقصدا من مقاصد الرب سبحانه، الذي أنزل كتابه للإرشاد إلى شرائعه، والهداية به"[1]

إن هذا القول أيضا مردود على صاحبه إن ذا الاختيار لدليل قوي على إعجاز القرآن، فهل بإمكان أمي لا يفهم القراءة ولا الكتابة أن يكون ساحرا في اختيار الأصوات الكثيرة واليسيرة النطق والكثيرة التداول على ألسنة العرب من غيرها، لإن فائدة الدراسات الصوتية قديما وحديثا لا تخفى على عاقل وأين أفنى الخليل عمره من غير الأصوات العربية وما يرتبط بها من المعجم والمخارج والصفات، وهل اعتراف المستشرقين للدراسات العربية في مجال الأصوات غير ذي فائدة ومن أين استمد أولئك منهج تحليل الأصوات وتصنيفها ووصفها من غير القرآن الكريم الذي يعد من أم مصادر الدراسات اللغوية وفي كل مستوياتها.

ثم يقول موضحا اضطرابه في الموقف الناتج عن التناقض: "وهب أن هذه صناعة عجيبة، ونكتة غريبة، فليس ذلك مما يتصف بفصاحة ولا بلاغة حتى يكون مفيدا أنه كلام بليغ، أو فصيح، وذلك لأن هذه الحروف الواقعة في الفواتح ليست من جنس كلام العرب حتى يتصف بهذين الوصفين، وغاية ما هناك أنها من جنس حروف كلامهم، ولا مدخل لذلك فيما ذكر»[2]. الجملة الأخيرة تؤكد أن نقد الإمام الشوكاني كانت له دوافع أخرى غير البلاغية، فقد انتقد واستهزأ واستفز ثم عاد ليقتات على المادة المردودة ويستخلص منها موقفا يلخص مجهود الزمخشري ككل في جملة تمثل اعترافا بجديته وأهميته العلمية والإعجازية، وهي قوله: وغاية ما هناك أنها من جنس حروف كلامهم، ولا مدخل لذلك فيما ذكر، بعد أن وصفه في البداية بالدقة المتناهية، فأول كلامه وآخره حجة عليه وليست له، بيان لمقصدية الانتقاد واعتراف صريح بريادة الزمخشري لهذه الدراسة العلمية الدقيقة. ولو صرحنا بما ذهب إليه الشوكاني فهو إلغاء لأهمية مظاهر الإعجاز وتأييد لمذهب الصرفة. بقي أن نتساءل إذن ما الذي يستفاد من هذه القراءة؟

خاتمة

أختم بالقول إن هذه الحروف لم يكن اختيار مادتها ولا مواقعها ولا عددها.. صدفة فإلى جانب الأسرار الإلهية المستأثر بها، تحمل في بنيتها وعددها وترتيبها وتنوعها وتوزيعها، معان وحكم عديدة، وتحتاج إلى قراءات عديدة تتظافر علها جهود مركبة من عدة اختصاصات تضم علماء العربية

[1]. المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[2]. الشوكاني: فتح القدير، 30/1.

وعلماء الأصوات وعلم اللغة المقارن، إلى جانب علماء التاريخ والدين، وغيرهم ممن سيساهم في كشف بعض أسرارها وتوضيح مغزاها.

إن هذه الفواتح تحقق اسم الفاتحة إذ تؤدي وظائف المقدمة من الإثارة والإقناع عن طريق التبكيت.

إن فواتح السور تعكس ما تمتاز به اللغة العربية في مجموع أصواتها من سعة مدرجها الصوتي وتوزعها في هذا المدرج توزعا يؤدي إلى التوازن والانسجام بين الأصوات.

إن مما تنبه عليه الخصائص الصوتية العامة لهذه الفواتح أن معرفة صفات الحروف هو أصل المعرفة بألفاظها.

إن الانفتاح على اللغات السامية، بل اللغات الشرقية ضرورة ملحة لفك الكثير من القضايا الغامضة في العربية والمغفلة في كتب التفسير.

إن عرض القرآن على الدراسات الصوتية الحديثة والمقارنات السامية لا يؤثر على قدسيته وإنما يزيد في تبكيت الجاحدين وإقامة الحجة عليهم بمسائل هي من جنس لغتهم كما رأينا بالنسبة للأصوات.

إن الإمام الزمخشري قد استقرأ هذه الفواتح قراءة علمية دقيقة لم تتكلف تأويل المعنى ولم تبحث في المستأثر به، فقدم تفسيرا علميا دقيقا قائما على الدليل والحجة يتأسى به ويستفاد منه في إعادة قراءة الكثير من القضايا اللغوية في الذكر الحكيم ولا ينقص من قيمته نقد الناقدين

وتبقى مجموعة من الأسئلة مجالا للبحث منها:

لماذا تكررت بعض الفواتح بلفظها وبعضها الآخر لم يتكرر؟

لماذا جاءت هذه الفواتح فاتحة لسور معينة دون غيرها؟ هل لهذه الحروف علاقة بترتيب سور القرآن؟ لماذا عدت بعضها آية مستقلة دون بعضها الآخر؟ لماذا بعض الآي معرب من دون غيره؟ هل يمكن اعتبار حم عسق فاتحتين منفصلتين، فيذهب كل ما قلناه وما قاله الزمخشري سدى ونبحث عن منطلقات وأسرار أخرى بدل التي ذكرناها خاصة فيما يتعلق بالعدد، إنها أسئلة بحاجة إلى المزيد من التأمل والدراسة. ولا أدعي في الختام أني قدمت كلمة الفصل وإنما أختم بما بدأت به فهي مجرد تأملات يسيرة، وخير ما يختم به القول في مثل هذه الموضوعات كما قال مالك بن نبي هو: والله أعلم.

المصادر والمراجع:

بروكلمان. **فقه اللغات السامية**. الرياض: جامعة الرياض، 1977م.

برجستراسر، جوتهالف. **التطور النحوي للغة العربية**. محاضرات ألقاها في الجامعة المصرية عام 1929 المستشرق الألماني برجستراسر. أخرجه وصححه وعلق عليه رمضان عبد التواب. ط.4. القاهرة: مكتبة الخانجي، 2003.

ابن جني، عثمان. (ت 392هـ). **الخصائص**. 3مج. تحقيق محمد علي النجار. بيروت: دار الهدى للطباعة والنشر، د.ت.

ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي. **زاد المسير في علم التفسير**. تحقيق عبد الرزاق المهدي. ط.1. بيروت: دار الكتاب العربي، 1422هـ.

حجازي، محمود فهمي. **علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية**. الكويت: وكالة المطبوعات، د.ت. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي، د.ت.

خليفة، حاجي. **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**. بيروت: مكتبة المثنى، د.ت.

الخليل بن أحمد الفراهيدي. **كتاب العين**. تحقيق: د. مهدي المخزومي، و د. إبراهيم السامرائي. بغداد: دار الرشيد للنشر، 1980م.

خليل، حلمي. **مقدمة لدراسة فقه اللغة**. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1993.

الزمخشري، جار الله محمود بن عمر. **تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي، د.ت.

السعران، محمود. **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي**. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ت.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان. **الكتاب**. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. القاهرة: د.ن، د.ت.

شحلان، أحمد. **مجمع البحرين من الفينيقية إلى العربية دراسة مقارنة في المعجم واللغات العروبية (السامية)**. ط.1. الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2009م.

الشوكاني. **فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية من علم التفسير**. ط.2. د.م: د.ن، 1964م.

عمر، أحمد مختار. **دراسة الصوت اللغوي**. القاهرة: عالم الكتب، 1991.

أبو فراخ، محمد أحمد إبراهيم. **حروف المعجم في القرآن الكريم ورد التأويلات الباطلة**. ط.2. الكويت: شركة مكتبة البخاري، 1992م.

القبيسي، محمد بهجت. **ملامح في فقه اللهجات العربيات من الأكادية والكنعانية وحتى السبئية والعدنانية**. دمشق: دار شمأل، 1999م.

ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **بدائع الفوائد**. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي، د.ت.

وافي علي، عبد الواحد. **فقه اللغة**. مصر: دار نهضة مصر، د.ت.

اليافي، عبد الكريم. "من أسرار الأبجدية العربية." **مجلة مجمع اللغة العربية**، دمشق، المجلد الرابع والعشرون، دمشق، ج1، (1979): 77-85.